فريق التفريغ بموقع الطريق إلى الله
يـــقـــدم
برنامج " مجالس القرآن سورة الأعراف "
الدرس الثالث الآيات ١٠- ١٨
(باللهجة المصرية)
لفضيلة الشيخ: أحمد عبد المنعم
رابط المادة: https://way2allah.com/khotab-item-127555.htm

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نستكمل بإذن الله ما بدأناه في "وقفات مع سورة الأعراف".

كنا توقفنا عند الآية العاشرة عند قوله -سبحانه وتعالى-: "وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ" الأعراف: ١٠، تكلمنا في المرة الماضية عن ماذا أو كيف يتعامل الناس مع الرُّسُل، ثم أخبرنا الله -عز وجل- أن قليلًا منهم ما يتذكّرون، ثم أخبرنا الله -عز وجل- أن كثيرًا من القُرى أهلكهم الله -عز وجل- لأنهم لم يتذكّروا ولم يستجيبوا للرُّسُل، ثم أخبرنا الله -عز وجل- في انتقال إلى مشهد في الآخرة، مشهد في السؤال "فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ" الأعراف: ٦، ثم رجل يقُصُّ عليهم بعِلم، ثم "الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ" الأعراف: ٨، ثم أخبرنا الله -عز وجل- في انقسام الناس إلى فريقين على حسب الموازين الشرعية ليست على حسب موازين الناس.

يعني الناس تنقسم، يعني لما تيجي تقسم الناس ممكن في الدنيا تُقَسِّم الناس إلى غني أو فقير، إلى مُتعلم أو أُمّيّ، إلى وظيفة معينة موظف أو غير موظف، ممكن فيه تقسيمات مختلفة للناس، لكن التقسيمات في الآخرة، فمَن خفّت موازينه فأولئك في قِسم، ومَن ثَقُلت موازينه -أسأل الله -عز وجل- أن أكون وإياكم منهم-، "فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ" الأعراف: ٨، ثم أخبرنا الله -عز وجل- عمَّن خفَّت موازينه. ثم قال ربنا -سبحانه وتعالى-: "وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ" الأعراف: ١٠، تكلّم المفسّرون في علاقة هذه الآية بالآيات السابقة، هل الواو دي واو عطف تعطف على معنى معين؟ ولا بتعطف جملة على جملة؟ أو واو استئناف؟ في واو اسمها واو استئناف بتبتدئ معنى جديد أصلًا.

قال بعضهم في علاقة هذه الآية بالآيات السابقة، أن من أسباب غرور الناس وسقوطهم في الابتلاء وفي الامتحان، أن الله -عز وجل- مكّن لهم في أسباب الدنيا، إن من أسباب إن الناس كتير من الناس لا يشكر ولا يتذكّر وأنه يسقط في ابتلاء إجابة الرُسل وكيف يتعامل مع الآيات، زي ما قلنا إن ده من محاور سورة الأعراف، كثير من الناس بيسقط لماذا؟ بسبب أنه مفتون بفتنة التمكين في الدنيا، الله -عز وجل- مكّن له في الأرض، مكّن له؛ جعل له القدرة على التحكّم في أسباب الأرض، وسنتكلم في معنى التمكين، إحنا الآن نتكلم في العلاقة بين هذه الآية ولآيات السابقة.

فقال بعضهم: إن هذه إشارة إلى أن كثير من الفِطَر التي انحرفت عن منهج الله –سبحانه وتعالى– كانت بسبب هذه الدنيا، بسبب هذه النعمة، بدلًا من أن يشكروا هذه النِعمة،كانت هذه النعمة وكان هذا التمكين فتنةً لهم.

وقال بعض المفسرين: علاقة الآيات "كما أنَّ الله –عز وجل– أنذرهم وهدَّدهم، فكذلك يذكر لهم النعم، فهكذا القرآن مثاني يأتي بالترغيب وبالتهريب، فأخبرهم الله –عز وجل– أنه كما أنّه أهلك بعض الأمم السابقة، فكذلك أنعم علينا ومكَّن لنا في الأرض، وأعطانا من النعيم –سبحانه وتعالى–.

الله –سبحانه وتعالى– على شيء قدير

وخاصَّةً بعض المفسرين لو قال أن الخطاب في هذه الآية كان خاص بقريش "وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ" الأعراف: ١٠، وأنَّ المَعنِيّ بكلمة الأرض هي مكّة، وإن ده خطاب خاص لقريش ومكة، فالمفسرون قالوا: كما أن الله –عز وجل– هدَّد وأنذر أهل مكّة بإهلاك الأمم السابقة، كذلك ذكَّرهم بنعمة تمكينهم في الأرض التي فيها البيت، وكيف أن الله –عز وجل– جعل هذه الأرض يُجبَى إليها ثمرات كل شيء، وهي أصلًا أرض غير صالحة للزراعة، كيف أن الله –عز وجل– سهَّل لهم مجيء الرزق إليهم بدون تعب.

وكيف أن الله –عز وجل– أجبر كونًا القوافل في سيرها أن تلتجئ إلى مكة، فبعض المفسرين قال: إن علاقة الآية دي بالآيات السابقة، إن ده سبب من أهم أسباب الفتنة هو التمكُن الدنيا، فقال بعضهم إن ده تنويع بين الترغيب والترهيب، وكما أن الله –عز وجل– ذكر الترهيب، ها هو هنا يذكر النعم على أهل الإيمان.

التمكين في الأرض

"وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ" الأعراف: ١٠

قيل: التمكين في الأرض ليس فقط كتمكين الله –عز وجل– ذي القرنين "إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ" الكهف: ٨٤ قال بعض المفسرين ده تمكين مختلف عن ده، لأن هناك التمكين تسخير وإعطاء لذي القرنين قوة حقيقية يتحكم فيها في هذه الأسباب.

أما التمكين هنا أن الله –عز وجل– أعطى للإنسان الآلات والأدوات التي لو استطاع أن يستعملها حقًا لوصل إلى التمكين في الأرض، بمعنى: إن ربنا –سبحانه وتعالى– خلق عقل الإنسان قادر على الوصول بكثرة التجارب والتعاون والتشاور، عقل الإنسان قادر على أن يُوفَّق إلى السيطرة على الأرض، والله –عز وجل– جعل هذه الأرض أيضًا قابلة إن الإنسان يُمَكَّن فيها ليه؟ الله –عز وجل– جعل هذه الأرض قائمة على أسباب ثابتة، الله –عز وجل– جعل من سننه –سبحانه وتعالى– أن سنن ربنا في الكون ثابتة لا تتغير، يعني الحديد مثلًا بينصهر عند درجة حرارة معينة، الماء بيتبخر عند درجة حرارة معينة، خواص معينة للرياح، خواص معينة للماء، خواص معينة للأرض، للصخور.

هذه السنن ثابتة فإذا اكتشفها الإنسان وفكر كيف يتعامل معها، وكيف يستغل الرياح، وكيف يستغل الأنهار، وكيف يستغل دوران الشمس، وتقلب الليل والنهار، إذا استطاع الإنسان استغلال هذه السنن الثابتة، هو يُمَكَّن له في الأرض، وكأن هذه النعم كلها سُخِرت له، هذا التمكين بيجعل الإنسان بعد فترة يظن أنه لا يحتاج إلى إله، "وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ" الأعراف: ١٠، حينما يأتيه رزقه ويطمئن به وتطمئن عيشته ويشعر بالتمكين، في هذه اللحظات غالبًا ما يتكلم الإنسان المتكبر الجاحد أنه لا يحتاج إلى إله، لأ خلاص أنا مش محتاج ربنا في حاجة، أنا عرفت أسيطر على الأرض، "وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا" يونس: ٢٤.

وهكذا الملاحدة اليوم، يظنون أنهم باكتشافهم الأسباب التي وضعها ربنا –سبحانه وتعالى–، هذه الأسباب لم تأتِ عبثًا من الذي ضبط هذا الكون؟ لذلك أهل العلم بيقولوا أن من أدلة وجود الله، بل من أدلة علم الله وقدرته – سبحانه وتعالى– المعيار والضبط الدقيق للكون، المعيار والضبط الدقيق للكون، اللي بيسموه **fine tunning**، إن إزاي كل حاجة معمولة بدقة غير متناهية، دقة رهيبة، دقة يعني مهما حاول الإنسان أن يكتشف هذه الدقة، أرقام صغيرة جدًا جدًا جدًا، لو تغيرت لفسد الكون.

بل حتى بعض غير المؤمنين، وأظن هو لا أدري ألف كتاب إسمه مجرد ٦ أرقام، إسمه **just 6 numbers**، مجرد ٦ أرقام وبيتكلم إزاي أن الكون فيه أرقام، مجرد رقم ١ بعد الفصلة من ٦ أرقام لو تغير الكون يفسد، وقال: أن هذا الكون قائم على معيات دقيقة جدًا، ثم هذا الشخص العجيب، يسأل في آخر الكتاب من الذي ضبط هذا المعيار، ثم ظل يبحث ولم يهتدِ إلى أنه الله –سبحانه وتعالى–، أمر عجيب فعلًا، إن هما يكتشفوا هذه الأسباب ثم يظنون أن، هما لم يفعلوا هذه الأسباب، مش هما اللي ضبطوا الكون، هم يكتشفون فقط، ثم بعد ذلك يقولون نحن لا نحتاج إلى إله، فهذا التمكين في الأرض من أهم أسباب فتنة الناس عن الدين، إن كل ما الإنسان بيزداد تمكين في الأرض، كل ما الإنسان بيزداد، الطاغية، الجاحد الذي لا يذكر النعم.

ولذلك من المعاني المتكررة كثيرًا جدًا في سورة الأعراف الشكر، من المعاني المتكررة، احنا قلنا واحنا ماشيين مع بعض كده، هنحاول نستخلص المحاور الأساسية اللي بتتكرر معانا.

قلنا أن من أكتر الكلمات اللي ذُكرت في سورة الأعراف إيه قبل كده؟ آيات، قلنا الآيات، لأن كلمة آيات أكتر سورة تكررت فيها سورة الأعراف، خلاص، والتعامل الخاطيء مع الآيات، كذبوا بآياتنا، ظلموا بآياتنا، التعامل الخاطيء مع الآيات.

قليلا ما تشكرون

فأيضًا من المعاني التي تكررت في السورة قضية الشكر، حتى الشيطان سيُخبِر بذلك، سيبحث عن قضية الشكر، فهذا التمكين المفروض أن يقابله شكر لأنها نعمة من عند الله، لا يقابله جحود فيقول الجاحد أنا لا أحتاج إلى إله، "وَلَقَدْ

مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ"، الله –عز وجل– هو الذي قدَّر هذه الأرزاق، هذه الأرزاق لم تأتِ عبثًا، الله –عز وجل– خلق المعدة تحتاج إلى أنواع معينة من الطعام من البروتينات والدهون والكربوهيدرات، الله –عز وجل– جعل هذه الأشياء موجودة في الطبيعة، وإلا من الذي جعل هذه الأشياء متناسبة مع المعدة؟ كان ممكن إن كل الطعام اللي موجود في الكون المعدة لا تستطيع أن تهضمه فلن يستفيد منه الإنسان.

تخيل لو كل الأطعمة الموجودة في الكون، مكونة مثلًا ناشئة من الصخور مثلًا، أو الأسمنت والحديد، لا يستطيع أن يطعمها الإنسان، من الذي جعل هذه المعدة تستطيع أن تأكل هذا الطعام؟ من الذي جعل هذه الأرض الطينية السوداء تُخرِج هذه الألوان من الأطعمة؟ من الذي قدَّر هذه المعايش؟ من الذي قدَّر دورة المياه في الأرض حتى لاينفد، وأن الإنسان يحتاج إلى الماء، من الذي قدَّر كل هذا؟ –سبحانه وتعالى– فالذي مكَّن لكم وجعل لكم فيها معايش لكن للأسف كما خُتمت هذه الآية "قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ"، أن شكر هذه النعم قليل.

طول فترة النعمة والاختبار تجعل الإنسان ينسى

لأن الإنسان مع طول النعمة وأيضًا طول فترة الاختبار ينسى الإنسان، وده أمر مهم جدًا إن أحيانًا الإنسان لما بيقعد فترة طويلة بدون محاسبة، يعني هو قاعد في لجنة الامتحان لكن بدون محاسبة ينسى، يعني تخيل مثلًا لو واحد دخل كلية وقالوا له الامتحان بتاعك مش بعد كل ترم ولا آخر كل سنة، امتحانك بعد ما تخلص الأربع سنين هنعملك الامتحان، ده بيسهِّل عليه عملية النسيان، طبعًا لو كده أنت هتعيش ٣ سنين و ١١ شهر براحتك وتيجي آخر شهر تدور على الورق، فطول فترة الامتحان بدون محاسبة بتجعل الإنسان ينسى، يقول لك طب ما خلاص بقى.

فكذلك الدنيا إن المحاسبة مؤجلة، لكن أنت الآن في فترة الامتحان. لما بيعدي على الإنسان فترة طويلة بدون بلاء، بدون عقوبة، هذه الأشياء بتجعل الإنسان ينسى ويصل إلى مرحلة من الاسترخاء والاستدراج –والعياذ بالله–، فقال ربنا –سبحانه وتعالى– "قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ".

نعمة الإيجاد

ثم قال ربنا –سبحانه وتعالى– ليخبرنا بنعمةٍ أخرى، ونعمةٍ أهم وأعلى، وهي نعمة الإيجاد أصلًا، يعني إذا كانت هذه النعمة الإنسان بيأكل ويطعَم في الدنيا، من الذي أوجدكم؟ "وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ" الأعراف: ١١، خلقكم الله –عز وجل– وأوجدكم بعد أن لم يكن الإنسان شيئًا مذكورا، ثم هو خلقكم –سبحانه وتعالى–، "ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ"، نعمة التصوير، ثم دي أحيانًا بيسموها التراخي الرُتبي، يعني نعمة أعلى كمان، بنلتقي في رتبة أعلى، يعني ثم مش بس أحيانًا بتفيد العطف، لا أحيانًا ثم بتفيد التراخي الرُتبي، يعني إيه كلمة التراخي الرُتبي دي؟ يعني إن ما يُذكر بعد ثم أعلى مرتبة مما قبل ثم، ممكن يكون أعلى في النعمة، وممكن يكون أعلى في الجحود.

زي ما في أول الأنعام " الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۖ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ" الأنعام: ١، فرق في الرتبة رهيب بين الخلق والإيجاد، ثم يكفرون النعمة، كيف نزلوا وانحَطوا إلى هذه المرتبة، فالتراخي الرتبي إما للعلو أو إما إلى السفول، على حسب السياق، فهنا، "وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ"، طب ما فيه مخلوقات كثيرة لكن ليست كهيئة الإنسان، الذي كرَّمه الله بل وشرَّفه الله –عز وجل–، لم يخلق الله –عز وجل– الإنسان يزحف على بطنه، ولم يَخلُق الله –عز وجل– الإنسان إذا أراد أن يَطعَم يضع فمه في الأرض، لكن الله –عز وجل– كرَّم هذا الإنسان، وجعله منتصب القامة، ثم جعله لا يسجد إلا له –سبحانه وتعالى–.

الإشكالية في هذه الآية

كرَّم هذا الإنسان "وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ"، هذه الآية فيها إشكال طويل بين المفسرين أنا هحاول أذكره مقتضب، عشان أنا عارف أن أغلبكم عايز يقرأ في التفاسير، وعايز يروح ينهمك في التفاسير، فبقول له غالبًا إن فيه بعض الحاجات هتقابله، هنا فيه إشكالية لو قلنا أن كلمة، "ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ"، إزاي ربنا يخاطب البشر يقول: "خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ"، هو احنا خُلِقنا الأول وصُوِرنا وبعد كده ربنا قال للملائكة اسجدوا لآدم، ولا ربنا قال للملائكة اسجدوا لآدم الأول وبعد كده، بعد فترة من الزمان ربنا خلقنا وصورنا، إيه اللي حصل في الزمان؟ ترتيب الزمان إيه اللي حصل؟

ربنا خلق آدم وبعدين قال للملايكة تسجد لآدم، أمر الملائكة بالسجود لآدم، ثم خلقنا وصورنا –سبحانه وتعالى–، فقالوا إن ثم دي لو بتفيد العطف الزمني، يبقى هنا فيه إشكالية، فحاولوا هنا احنا دايمًا قلنا أن التذكير أنك بتلتقط إشكالية ثم يختلفوا في الحل، يُبدِعوا في إيجاد الحلول، قال بعضهم: أن خلقناكم وصورناكم هذا خطاب المقصود به آدم، ثم خُوطِب بالجمع تكريمًا له، مش المقصود به بقية البشر، وأن بقية البشر يدخلون فيه تَبعًا، إنما الخطاب في الأصالة لآدم، فكأن معنى الآية: ولقد خلق الله –عز وجل– آدم ثم صوره ثم قال للملايكة اسجدوا له، طب ليه جه الخطاب بالجمع؟ تكريمًا لآدم.

وقال بعضهم: لا، المقصود هنا بالخُلق هو التصوير إيجاد الذرية في صلب أبينا آدم، وأننا قدَّر الله –عز وجل– بداية خَلق كل إنسان وضع أصل هذه المادة في صلب أبينا آدم، "خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ"، وهذا حدث مع بداية الخَلق ثم قال للملائكة اسجدوا لآدم، فهنا الترتيب الزمني متَّسِق، وقالوا طب إيه الدليل على ده؟ ما الدليل على هذا؟ قالوا الدليل هيبقى أن الله –عز وجل– مسح على ظهر آدم فأخرج كل الذرية من ظهر آدم، فهذا دليل أن أصل المادة موجود.

وبعض الأبحاث اللي اتعملت في الإعجاز العلمي في قضية الدي إن إيه تثبت وبيختاروا القول ده اللى بيتكلموا بالإعجاز العلمي، وإن قضية إن أصل الإنسان المادة بتاعته اللي هي مادة الدي إن إيه، إن هي اللي بيتم توارثها من لدن آدم –عليه السلام–، فده قول.

قول ثاني، إن الموضـــوع ملوش علاقة أصـــلًا بالترتيب الزمني، وإن كلمة ثُم، أي أن الله الذي خلقكم هذه نعمة، "ثُمَّ صَـوَّرْنَاكُمْ"، هذه نعمة أعلى، "ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ"، هذه نعمة أعلى وأعلى، القضـية مش في ترتيب زمني، القضـية في ترتيب رُتب النعم، لأن ممكن إنسـان يُخلَق ثم يصـوَر ثم لا يُكرَّم، فقالوا التكريم بإسـجاد الملائكة لآدم هذه أعلى نعمة أخذها الإنسان،

طيب لو قلنا إن فعلًا أن هذه أعلى نعمة أخذها الإنســـان. فالعلماء اتكلموا: ما هي النعمة الخاصـــة بأبينا آدم التي اســـتوجبت إســـجاد الملائكة له؟ تاني؛ ما هي النعمة أو الفضـــيلة التي حاز أو أعطاها الله –عز وجل– لآدم جعلت الملائكة يسـجدون له، إيه هي النعمة دي؟ يعني إيه الفضـيلة اللي عند سـيدنا آدم خلت الملائكة يسـجدوا له؟ إيه؟ العلم، ما هو مكنش لسـه عبد، نفخ الروح أنها من عند الله –سـبحانه وتعالى–، لأن في آيات "وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ" الحجر: ٢٩، فقالوا السجود هنا مترتب على نفخ الروح.

سورة البقرة، ربنا –سبحانه وتعالى– ذكر قصة الإسجاد بعد قصة التعليم، لكن العلماء اختلفوا وهل التعليم حصل الأول وبعدين السجود، ولا السجود حصل الأول وبعدين التعليم، فيه خلاف بين أهل العلم في سورة البقرة، فمجموع القولين نفخ الروح والعلم، نفخ الروح أي أنها روح من عند الله –عز وجل–، وأن آدم ليس مجرد طين، إنما فيه روح من المِلك –سبحانه وتعالى–، هذه الروح هي التي ترفع الإنسان.

فإذا كانت هذه النعمة، نعمة نفخ الروح هي أغلى نعمة عند الإنسـان كيف يُعرِض الإنسـان عنها ويلتصـق بالأرض؟ كيف يختار الدنيا ويترك الطاعة؟ كيف يجحد ما جاء من عند الله وهو الوحي ويختار المناهج الأرضـية، هو يكفر بأعظم نعمة، فإذا اختار الإنسـان الأرض ولصـق إلى الأرض، وأخلد إلى الأرض كما معنا في آخر سـورة الأعراف، آتيناه آيةٍ، "وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ" الأعراف: ١٧٦، هو يكفر ويجحد بأعظم نعمة أعطاها الله –عز وجل– للإنسان، نعمة نفخ الروح من عند الله –سبحانه وتعالى–.

والنعمة الأخرى نعمة العلم، الذي لايتعلم ولا سِـــيَّما الوحي؛ هو يجحد أعظم نعمة، نعمة أن الإنســـان قابل للتعلُم، الإنسان قابل أنه يتعلم، هذه نعمة وفضيلة أعطاها الله –عز وجل– للإنسان، يبقى اتكلمنا عن الإشكال اللي في ثم، واتكلمنا إزاي العلماء حاولوا يحلوا هذه الإشكالية.

هل إبليس كان من الملائكة؟

" ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْـجُدُوا لِآدَمَ فَسَـجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّـاجِدِينَ"، معلش احنا هنحاول نتكلم بسـرعة، يقابلنا إشـكاليات بنحاول نذكر أراء المفسـرين في حلها، "فَسَـجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّـاجِدِينَ"، فين الإشـكال اللي هنا في الآية دي؟ إن ربنا بيقول: " ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْـجُدُوا لِآدَمَ"، ربنا بيقول:" فَسَـجَدُوا"، الواو واو الجماعة

دي بتعود على مين؟ على الملائكة، " فَسَـجَدُوا"، يعني لو شـلنا واو الجماعة الضـمير وحبينا نحط الإسـم الظاهر، هنقول: فسجد الملائكة.

ربنا بيقول: "فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ" إزاي نحل الإشكال ده؟ الشيخ باسل أهو بيقول إبليس مش ملك أصـلًا، طب لما هو إبليس مش مَلَك أصـلًا إزاي جه بعد الاسـتثناء؟ لو قلنا إن إبليس مش مَلَك إزاي جه بعد الاسـتثناء؟ مش المفروض ما بعد الاسـتثناء من جنس ما قبل الاسـتثناء، يعني أنا لما أقول مثلًا: أكلتُ الخروفَ إلا الذراع، المفروض إن الذراع ده من جنس ده معايا؟ أو مثلًا: ضـربتُ الطُّلاب إلا طالب، من جنس ده صـح؟ يبقى ده اسمه اسـتثناء، طب إزاي إبليس، لو قلنا إن إبليس مش من الملائكة إزاي إبليس ييجي بعد الاسـتثناء؟ يبقى دي إشكالية، تعالوا نشوف العلماء حلوها إزاي.

بعض العلماء، ومش عاوزك تستغرب، قال إبليس من الملائكة، عشان متتصدمش بس لما تيجي تقرأ في التفاسير، وهنا بيقابلنا إشـكالية إن بعض الناس لما بيقابل الأقوال اللي زي دي بيفزع، زي ما يكون مثلًا كان بيطوف حوالين مكان غلط زي ما يكون فيه أصـل من الدين هُدِم، وهو الموضـوع بسـيط عادي، إنت ضـرّك إيه دلوقتي لما عرفت إن بعض العلماء قالوا إن هو كان الملائكة ثم فسق عن أمر ربه طرده الله –عز وجل–، يعني إيه اللي ممكن يعمل أزمة نفسية في حاجة زي كده؟ فأحيانًا بعض الناس بيسمع بعض الأقوال فيُصدَم.

أنا عايز أقول لك إن الصـدمة الأكبر إن بعض الناس نسـبوا القول ده لجمهور المفسـرين، وده اختيار كثير من أئمة التفسير، زي الإمام الطبري، وأظن ابن عطية، وغيرهم من المفسرين، وإن كان في ظني ليس هذا هو الراجح والله أعلى وأعلم– لأن فيه أدلة تانية أقوى.

طيب اللي قالوا إبليس من الملائكة لازم يحلوا إشـكالية، واللي قالوا إبليس ليس من الملائكة لازم يحلوا إشـكالية الاسـتثناء، يبقى كل واحد هنا هيختار قول لازم يبقى مُطَّرِد مع نفسـه، اللي هيختار إن إبليس من الملائكة لازم هيقابلوا آية مُشكِلَة صريحة في القرآن اللي هي إيه؟ آية الكهف هي دي أصرح آية في القرآن "إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَـقَ" الكهف: ٥٠، الزيادة دي مش موجودة غير في آية الكهف "كَانَ مِنَ الْجِنِّ"، بتؤكد أن الكينونة من الجن، فالتانيين قالوا ما احنا اللي خلانا نقول إنه من الملايكة إن الأمر صدر للملايكة. فإما يأولوا صدور الأمر للملائكة إن إبليس مكنش معاهم لكن تلقى الأمر فقط، أو يأولوا كلمة "كَانَ مِنَ الْجِنِّ".

اللي قال إن إبليس من الملائكة قال: إن الجن هنا معناه: كل مستتر عن العين، كل مستتر عن العين يسمى جن، مش المقصـود بيه الجن اللي هما الجن الشـياطين، فكل مسـتتر عن العين يسـمى جن، جابوا الكلام ده منين؟ قال ربنا –

سبحانه وتعالى-: "وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا" الصافات: ١٥٨، سورة الصافات كتير من السلف قال: الجن هنا الملائكة، لأن فعلًا قريش كانت بتقول الملائكة بنات الله -تعالى الله عما يقولون-.

طب ردوا إزاي على حديث صحيح مسلم "أن الله -عز وجل- خلق الملائكة من نور، وخلق الشياطين أو الجن من مارجٍ من نار، وخُلِقَ آدم مما وُصِفَ لكم"[1]، اللي هو من الطين يعني، قالوا: إن ده فرع من الملائكة اللي هو الجن، فصيل، فصيل من الملائكة اللي هي الجن، كان عندها قضية الاختيار زي إبليس، لكن الملايكة عامةً، وبعضهم قال: لأ ده كان من الملائكة فعلًا لكنه لما عصى طرده الله -عز وجل- ويفعل الله -عز وجل- ما يشاء، خلاص؟

القول التاني: إن إبليس ليس من الملائكة، وإن هو رفعه الله -عز وجل- معهم لكنه ليس منهم، رفعه لعبادته وإن إبليس مخلوق من نار كما هو في الصحيح، صحيح مسلم، "خُلِق من مارجٍ من نارٍ" وقال ربُّنا: "كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ" الكهف: ٥٠، وإن إبليس له حرية الاختيار في القرار، ليس كالملائكة "لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ" التحريم: ٦، إبليس زي آدم، أنه أعطاه الله -عز وجل- أحد معاني الأمانة؛ القدرة على الاختيار الخير أو الشر "فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا " الشمس ٨: ١٠، لإن الإنسان "إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا" الإنسان: ٣، هذا الاختيار وهذه الأمانة التي كانت للبشر أيضًا كانت عند إبليس، ولكن إبليس اختار المعصية -والعياذُ بالله- فمُسِخَ وطُبِعَ على قلبه.

إشكالية من يقولون أن إبليس من الجن

زي ما هنتكلم على كلمة " إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ"، وكلام العلماء معاها، ما حدث لإبليس حينما قال الله له: "إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ" الأعراف: ١٣،

فاللي قالوا إبليس من الجن وده اللي أنا شايفه، وده اختيار الإمام ابن كثير وكثير من أئمة السنة المتأخرين وده أوفق -والله أعلى وأعلم-، قالوا: أمال "إلا" هنا معناها إيه بقى؟ هنا هيقابلهم اللي هيقول إبليس من الجن هيقابلهم إشكاليتين:

الإشكالية الأولى: كيف صدر الأمر له؟

الإشكالية الثانية: إزاي جه في الاستثناء؟ الإشكالية الأولى قالوا: حلها أنه كان متعبدًا ورفعه الله -عز وجل- مع الملائكة، فصدر له الأمر مع الملائكة، لكن طب ليه ربنا مقالش: قلنا للملائكة ولإبليس اسجدوا، قال دا فيه حاجة اسمها التغليب، حاجة في اللغة اسمها إيه التغليب، إن لما يبقى في رجال مثلًا رجال ونساء وإنت بتمر عليهم بتقول: السلام عليكم، مش لازم تقول السلام عليكم وعليكنّ، لأ من باب التغليب بتُغلِّب الذكور، مش لازم تقول عليكم وعليكن لا من باب التغليب، فهنا من باب التغليب، ودايمًا بتغلِّب غالبًا الأفضل أو المذكر على حسب قواعد معينة

[1] "خُلِقَتِ المَلائِكَةُ مِن نُورٍ، وخُلِقَ الجانُّ مِن مارِجٍ مِن نارٍ، وخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ." صحيح مسلم

في اللغة، فهنا غُلِّبَ الملائكة لأنهم أفضـــل من إبليس، "وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْـــجُدُوا لِآدَمَ" البقرة: ٣٤، جاوبوا على الإشكال الأولاني.

الاستثناء المنقطع والمتصل

طب الإشكالية التانية: اللي بعد الاستثناء؟ فيه وده معروف في اللغة، خدوا القاعدة دي: " إذا كان ما بعد الاستثناء ليس من جنس ما قبل الاســـتثناء، يعني إذا كان ما بعد إلا ليس من جنس ما قبل إلا، بتيجي بمعنى لكن، بيســـموه استثناء منقطع، لو ما بعد إلا من جنس ما قبل إلا يبقى اسمه استثناء متصل، يعني لما أقول: أكلتُ الفاكهةَ إلا العصيرَ معنى كلامي: أكلت كل حاجة لكن العصـير مقدرتش أكمّله، يعني العصـير مش من جنس الفاكهة، وله أمثلة كتير في اللغة، إن لو ما بعد إلا ليس من جنس ما قبل إلا بييجي بمعنى إيه؟ لكن. يبقى هيبقى معنى الآية إيه؟ "فَسَـــجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ" الأعراف: ١١ يبقى معنى الآية إيه؟ فســـجد الملائكة ولكن إبليس لم يســـجد، مش معناها إن إبليس من الملائكة.

يبقى استثناء منقطع، عشـان ده هيقابلك لما تيجي تقرأ التفاسير هيقول لك الاستثناء ده استثناء منقطع، بمعنى إيه الاستثناء المنقطع؟ عشان تريح نفسك، بمعنى إيه؟ بمعنى لكن، لو ما بعد إلا ليس من جنس ما قبل إلا مش منه خالص ولا من تفاصـــيله ولا من الشـــجرة بتاعته أو فروعه، يبقى هو إيه، لذلك بيقول لك حتى مثل مشـــهور، هو مثل فَج بيُضَـرب أحيانًا في كتب اللغة عشـان يوضـح أد إيه، بيقول لك: جاء الطلابُ إلا حمارًا، هو عايز يقول لك إن الحمار مش من الطلاب، ليس من جنســهم، يعني: ولكن لم يأتِ ولا حمار جاء كل الطلاب ولم يأتِ أي حيوانات، ده الغرض منه هو مش جملة واقعية، الغرض منه يوضـح لك إمتى ازاي ده ييجي بعد إلا، ده مقبول في لغة العرب، يبقى بيسـموه استثناء إيه؟ استثناء منقطع.

قرار إبليس بالمعصية من قبل خَلق آدم –عليه السلام–

فَسَـــجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِنَ السَّـــاجِدِينَ" الأعراف: ١١، كلمة "لَمْ يَكُن مِنَ السَّـــاجِدِينَ"، بعض العلماء قال ليه مقالش "لم يسجد" وقال: لَمْ يَكُن مِنَ السَّاجِدِينَ" نَفي الكَوْن، كان ده فعل منفي، نفي الكون كأن في طبيعته كان مقرر من الأول، من لحظة خَلق آدم، إن أي أمر هيكون فيه تفضـــيل لهذا المخلوق عليه لن ينفذه، من أول لحظة وإبليس مقرر حسـد هذا المخلوق، كما أخبر النبي –صـلَّى الله عليه وسـلم– إن "أول لما صـوَّر الله –عز وجل– آدم قبل أن ينفخ فيه الروح جعل إبليس يطيف به"، لســـه هو عبارة عن تمثال طيني في الجنة، لم يُنفَخ فيه الروح بَعد "جَعَلَ إبليسُ يطيفُ بِهِ"[٢]، قعد يدرسه. وفي رواية خارج الصحيح في الآثار وبعضها في الإسرائيليات قال: "لشيءٍ ما خُلِقت، ولئن سُـلِّطتُ عليكَ لأُهلِكَنَّكَ"، هو من الأول مقرر إن أنا مش هبقى مع دول، أي حاجة فيها تفضـيل لهذا المخلوق عليَّ لن أنفّذها "لَمْ يَكُن مِنَ السَّاجِدِينَ" الأعراف: ١١.

---

[٢] "لَمَّا صَوَّرَ اللَّهُ آدَمَ في الجَنَّةِ تَرَكَهُ ما شاءَ اللَّهُ أنْ يَتْرُكَهُ، فَجَعَلَ إبْلِيسُ يُطِيفُ به، يَنْظُرُ ما هُوَ، فَلَمَّا رَآهُ أجْوَفَ عَرَفَ أنَّه خُلِقَ خَلْقًا لا يَتَمالَكُ" صحيح مسلم

وقيل كلمة "لَمْ يَكُن مِنَ السَّـــاجِدِينَ"، تفيد جمع الســـاجدين تفيد: إنه مكنش له عذر الطلب مكنش له لوحده، يعني مكنتش حاجة تقيلة على نفســـه، طب ما يخليه مع بقية الملايكة، أتكون معهم حينما تُرفَع ولا تكون معهم حينما يسجدوا؟ طب ما تخليك معاهم "لَمْ يَكُن مِنَ السَّاجِدِينَ"، من رحمة المَلِك –سبحانه وتعالى– هنا أنه لم يُؤاخذه ويُعاجِله بالعقوبة، بل سأله: "قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ" الأعراف: ١٢، هنا في إشارة ودَلالة أن الله –عز وجل– لا يُهلِك قومًا إلا بعد أن يُنذِرهم ويسألهم ويعاتبهم ويرسل إليهم رسولًا، "وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا" الإسراء: ١٥.

كل مشهد من قصص القرآن مناسب لموضوع السورة

"قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ"، سأله الله –عز وجل–. هنا فيه نقطة: سورة الأعراف هنجِد إن كل سورة تقص علينا قصة آدم وخَلق آدم بتلتقط لقطات مختلفة، وده في قصص القرآن عامَّةً، تجد قصة سيدنا موسى بتجيب مشاهد مختلفة في سور متنوعة، يعني موسى والخضر مجتش غير في الكهف، السامري مجتش غير في طه، قصة موسى مع فرعون جت متفرقة في ســور كتير، كل ســورة كانت بتذكر لنا مشــهد معين، طب ليه الاختلاف ده؟ كل مشــهد من قصــص القرآن مناسب لموضوع السورة، تاني؛ القاعدة دي مهمة جدًا: كل مشهد من قصص القرآن مناسب لموضوع السورة.

اتكلمنا عن ده في سورة الأنعام لما قلنا إن قصة سيدنا إبراهيم جت في القرآن في أكثر من موطن، قصة رؤية النجوم والكواكب سواء كان ناظِر أو مُناظِر لم تأتِ إلا في الأنعام بيَّنَّا لماذا، يبقى انتقاء بعض المواطن من قصة واختصاص بها سورة معينة ده مناسب لموضوع السورة.

بداية الخَلق وتعليم آدم زي ما موجود في البقرة، لأن الغرض من قصة البقرة فضل أبينا آدم لاستخلافه، هناك بداية الاستخلاف لأن الغرض من سورة البقرة بيان كيف تعامل بنو إسرائيل مع استخلافه، فربنا جابلنا في سورة البقرة القصـــة من الأول، الغرض في الأعراف مش كده، الغرض الأســـاســـي في الأعراف: التعامل الخاطيء مع أوامر الله، والتحذير من الشيطان الذي يدفعنا لعدم تنفيذ أمر الله، ده من الأغراض الأساسية زي ما اتكلمنا كيف تعامل الأقوام مع الرُّسُل.

يعني في الأنعام كيف تعاملوا مع الـرَّب، في الأعراف كيف تعاملوا مع الرسالة مع الأوامر، واضح الفرق؟ ففي الأعراف نجد إن الخَلق والأمر بالسجود على طول في آية أو آيتين ودخلنا لموطن الشاهد على طول مباشرةً، هنجد إن إغواء الشيطان لأبينا آدم في سورة البقرة مقتضب، "فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ" البقرة: ٣٦، دي في البقرة بس "فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ" بس، هنا إزاي ده حصل و قال لهم إيه؟ وكان إيه المدخل، فيه تفاصيل للسقوط وللتوبة أكتر من تفاصيل البقرة، لأن ده مقصد أساسي من مقاصد سورة الأعراف.

توزيع القصص القرآني

توزيع القصص القرآني على كل سور القرآن أمر مُبهِر لذلك قبل ما بتيجي تدرس قصة من قصص القرآن تجد إنك تجمع قصص القرآن، هنا "قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ" الأعراف: ١٢، حقيقةً هنا في إشكال لُغَوِي لكن أنا هتجاوزه لإنه مبحث لغوي طويل شوية "زيادة حرف لا" "مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ"، لأن في سورة تانية زي سورة الحِجر وص"مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ" ص: ٧٥، أصل الكلام فعلًا: ما منعكَ أن تسجد؟ إزاي "مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ"؟ بعضهم قال: "لا" دي زائدة للتأكيد، وأحيانًا: بيسمّوها صِلَة غير موصولة؛ موصولة بمعنى الاسم الموصول، إنما صِلَة أن تأتي أحيانًا بمعنى "زائدة" نيجي تقرأ إن الحرف ده صِلة كأنه زائد يفيد التأكيد.

وده مبحث طويل أوي: هل في حاجة اسمها حرف زايد في القرآن؟ بعضهم قال لأ، وبعضهم قال زائد نحوًا لكن ليس بلاغةً يعني ملوش إعراب لكن له دلالة لغوية بلاغية معيَّنة ده قصة طويلة، الشاهد إن عشان بعضهم يخرج من الإشكال هنا قال إن لا زائدة.

وبعضهم قال: إن "حملك" هنا يُضَمَّن فعل خفي في داخله هو: ما الذي حَمَلَكَ واضطَرَّكَ لألَّا تسجد؟ إيه الدافع اللي جوّاك خلّاك تمتنع من السجود؟ أكيد في دافع خلّاك ترفض، كل الملائكة "فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ " ص: ٧٣، أظن دي في ص التأكيد مرتين "كُلُّهُمْ" و "أَجْمَعُونَ"، بعضهم قال: "كُلُّهُمْ" لكي لا يستثني مَلَكًا و"أَجْمَعُونَ" في نفس الوقت لم يتأخر أحد، في هذا المشهد المَهيب، في هذا التكريم العظيم لماذا ترفض؟ ليه تختار إنك تقف لوحدك كده؟ أكيد فيه دافع، "قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ" الأعراف: ١٢،

لماذا رفض إبليس السجود لآدم –عليه السلام–؟

قبل أن نقرأ إجابة إبليس عليه لعنة الله نشوف.

لا ننسى أبدًا هذا التكريم، لا ننسى هذا التكريم لإن كل مرة يبتعد الإنسان عن شرع الله –عز وجل– هو يجحد هذا التكريم، كل مرة الإنسان يلتصق بالأرض ويبتعد عن الوحي هو ينسى هذه اللحظة المَهيبة، لما تيجي تشوف المناهج الغربية اللي لا تعترف بالوحي كيف تتعامل مع الإنسان؟ أما ييجوا يحللوه حتى من ناحية علم النفس أو من الناحية البيولوجية يعني حتى من ناحية الخَلق يعني هما طبعًا مبيعتبروش إن في خَلق أو جُلُّهم يعني، إن هو مجرَّد حيوان متطور، مُجرَّد غرائز تتحرك زي ما بعض علماء النفس عندهم بيقولوا، هو مجرَّد ذرَّة تافهة غبار كَوني، إحنا مجرد غبار كوني تائه يوشك أنه ينقرض.

الفرق تقييم الوحي والنظر إلى الأحجام

شوف هما إزاي بيتعاملوا بعَبَثِيَّة في الحياة، لكن المؤمن يشعر بهذا التكريم، يستحضر حينما يقرأ القرآن أنه موجود في هذه الأرض لغاية عُظمَى، هما يقولوا إزاي يعني ده الأرض مطلعتش مركز الكون ولا حاجة ساعة ما اكتشف اللي هو كوبرنيكوس ده إن الأرض مش مركز الكون ولا حاجة زي ما كانوا معتقدين قال لك: ده الأرض طلعت ذرة تايهة في الكون وكذلك الإنسان ملوش قيمة والإنسان ملوش مركز، هم نظروا إلى الأحجام لم ينظروا إلى قيمة الوحي كما فعل

إبليس بَصّ على قوة النار، يظن إن حينما يحدث صـراع النار مع الطين مين اللي يكسـب؟ هو بيقيّمها بمعايير مختلفة، إحنا قلنا جه الميزان ليرجعنا إلى موازين الشرع.

الإنسـان نعم ضـعيف الإنسـان نعم بمنظور الأحجام أشـبه بذرة تائهة على ذرة تائهة موجودة وسـط مليارات المجرّات، لكن اصطفاه الله، أنزل الله إليه الوحي، أسجد اللهُ لأبيه آدم الملائكة، كلّم الله –عز وجل– فردًا منه؛ موسى بل ومحمد –صلَّى الله عليه وسلم– أيّ تكـــــريم، فلحظات نزول الوحي لحظات تكريم تجعل الإنسان يعيد النظر إلى نفسه وإلى وظيفته على الأرض، فهنا إبليس بيتحرك بنفس المنطَلَق.

"مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ" الأعراف: ١٢، أسجُد ليه؟ ما قيمته؟ شوف الموازين لما بتختلّ بعيدًا عن الشرع "قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ" الأعراف: ١٢.

يعترفون بالخَلق ومع ذلك يخالفون الأمر

هذه الإجابة الإبليسـية اللعينة عليه لعنة الله هنا ربنا –سـبحانه وتعالى– يأمره أن يسـجد ثم هو يُحلِّل الأمر، أنا مش شـايف إن الأمر ده حكمة، ربنا بيقوله: افعل "اسْـجُدُوا" الأعراف: ١١، "فَسَـجَدَ الْمَلَائِكَةُ" الحجر: ١٣، وهو يقول أنا مش مقتنع، أنا شـايف إن الأمر ده فيه مشـكلة مش مظبوط، كيف يسـجد النار لطين؟ ويقعدوا يتناقشـوا بقى ويعملوا بقى جلسـات وهل فعلًا النار أحسـن من الطين؟ آه فعلًا، يبقى إحنا محتاجين نردّ الحُكم ده لأن احنا اكتشـفنا إن النار، أيها المخابيل ماذا تفعلون؟ بتعملوا إيه؟ أَمَرَ الـمَلِكُ –سبحانه وتعالى– بهذا، شرع من ربنا –سبحانه وتعالى– وتقعد تقولي طب استنى كده نشوف الكلام ده ينفع ولا مينفعش؟ ينفع عند مين؟ الـمَلِكُ يأمُر.

"أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ" الأعراف: ١٢، يعني إجابة مستفزة جدًا فعلًا، يالحلْمِ الـــمَلِكِ –سبحانه وتعالى– وهو يسأله "قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْـــجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ" الأعراف: ١٢، "قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ"، الأعراف: ١٢، وهذا اللعين يعترف يقول: خلقتني خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ" الأعراف: ١٢، يعني إنت معملتش حاجة يعني إنت مخلوق ولا ترضـى أن تسـتسـلم للأمر، إحنا قلنا دايمًا إن "الأعراف" بتربطلك إن فيه عند الناس إشـــكالية بين الخَلق والأمر، "أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ" الأعراف: ٥٤، جت في الأعراف، أنّ الذي خَلَق هو الذي يأمر.

أنت اعترفت بالخَلق، قضـــية الخَلق دي جت في الأنعام، هو هنا إبليس خلاص اعترف بالخَلق طب يعترف بالأمر، هنا في إشكالية إن في ناس ممكن تعترف بالخَلق زي مشركي مكة وبعض الأقوام لكن لا يعترف بالأمر، يقول لك لأ مفيش رسالة، لا يريد أن يأتمر "قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ"، هنا لذلك تجد آثار كثيرة عند بعض السَّلَف يقولون: "أوَّل مَن قاسَ برأيِهِ، قياس إبليس" عليه لعنة الله، هنا القضـية مش إن يكون القياس الفقهي غلط لأ، القاعدة إن: لا قياس مع نصّ، طالما فيه أمر من أوامر الله منقعدش نتفذلك بقى، نقول طب إحنا نشوف طب نشوف المآلات

طب مش عارف إيه، طالما أمر من ربنا، ممكن نقول إحنا مش قادرين إن مفيش استطاعة إحنا مستضعفين، لكن منردّش الأمر، هذا اللعين ردَّ أمرَ الله –سبحانه وتعالى– "قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ".

ومش ردّ الأمر وخلاص، ده ردّه يظهر نوع من الحكمة، ودي إشكالية، يعني لو قال مش عامل مش ساجد، هي كده أنا متكبّر، لأ ده بيغطيها بنوع من الأدلة؛ بيشرعنها، بحيث أنه لما يرد الأمر، وهنشوف هو عمل نفس الحركة مع سيدنا آدم مش بيقول له رُدّ الأمر وخلاص، مقالوش روح روح كُل وخلاص، لأ خلّاه يردّ الأمر بطريقة معينة لأن ده مفاد إبليس أصلًا أن تَرُدَّ أمرَ الله –سبحانه وتعالى– أن تعترض على أمره الشرعيّ والقَدَريّ، لذلك "لو" بتفتح عمل الشيطان ليه؟ لإن هي اعتراض على القَدَر، فهو الشيطان يريدك أن تقف هذا الموقف؛ الاعتراض، ليس العصيان فقط، يريدك أن تعترض على أمره –سبحانه وتعالى– الشّرعيِ والقَدَريّ. فقال "قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ"

أيهما أفضل النار أم الطين؟

والعلماء هنا لما اتكلموا بعضهم وده أغلب العلماء من أول الطبري وكتير من المفسرين، قال أصلًا الكلام ده غلط، الطين أفضل من النار وعمله مقارنات طويلة أن الطين هو مكان الإنبات، والطين مكان التواضع، والطين مكان الرزانة، والطين مكان البناء، أما النار هي مكان السرعة الطيش، والإحراق والهدم، أما الطين مكان الرزانة والبناء والإنبات، وإن اللي عايز يبني بيستعمل الطين، اللي عايز زرع بيستعمل الطين، لما بيتحط الطين بيتكوم كده وينخفض فيه نوع من التواضع، فكتير من العلماء قال: أصلًا الكلام اللي قالوا إبليس أصلًا غلط، فهو قال معلومة خاطئة واتكلم بيها على أنها مسلَّمة، نوع من الجهل المركب.

بعض العلماء، فريق من العلماء زي ابن عاشور مثلًا، وده كان جرأة منه شوية قال النار هي أفضل أصلًا، وقعد يتكلم ليه النار أفضل وأصَّل ليه النار أفضل، لكن أفضلية النار لا تقف أمام أمر الله، ليه؟

أولًا: لأنه أمر الله، ثانيًا: لأن هذا الطين فيه نفخة من روحه –سبحانه– فهو اجتزأ الطين بس، يعني إبليس اجتزأ الطين، مقلش خلقته من طين ونفخت فيه من روحك. بعض العلماء قال إحنا لا ندري أيهما أنفع النار أم الطين وده من المتأخرين، وبعضهم قال: لا أصلًا النار والطين محتاجين لبعض، والقضية مش تنافس القضية تكامل، وأن استواء الطين يحتاج إلى النار، وإن ليه تخلي الموضوع تنازع؟ يعني هو لما ربنا قال الملائكة اسجدوا لآدم هل ده معناه أن الملايكة ملهاش أي دور؟ لا "وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ" الصافات: ١٦٤.

ما أميل له أن أفضلية الطين جاءت من هذه النفخة، لذلك الذي يهتم بطينته فقط ولا يغذّي هذه النفخة هو يخلد إلى الأرض، كما فعل عالم بني إسرائيل اللي في آخر سورة الأعراف، فالشاهد "قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ"، فرد أمر الله –عز وجل– بقياس فاسد، وأصَّل لهذا القياس الفاسد حتى يرفض هذا السجود، طبعًا كلمة أنا خيرٌ

منه مفتاح كل شر و–العياذ بالله–، الكلمة دي لما بتسيطر على إنسان بتخليه يرفض حاجات كتير جدًا، في حين أن لازم يبقى فيه قائد، لازم يبقى فيه إمام، فلو كل واحد رفض وقال: أنا خير منه يفسد الصف تمامًا، "فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ" النجم: ٣٢.

خطورة التكبر

أنا خير منه دي ما سُلطت على عملٍ إلا وأفسدته، أي مجموعة شغل، عمل دعوي، حركي، ما سُلِطت هذه الكلمة على قلوبهم وعقولهم إلا وأفسدتهم، ما انتشرت بينهم على ألسنتهم، أنا عملت، لا أنا اللي عملت، إلا كانت إيذانًا ببداية الخراب، نعوذ بالله من ذلك، لذلك أول لما نسمعها تنتشر لابد من قصمها مباشرةً يعني أرجعها، لابد أن نرفضها، خلاص الكلمة دي ننساها، محدش يقول بس أنا اللي عملت، بس أنا اللي عملت، طب لا أنت ولا هو، يتشال العمل ويبوظ العمل.

لو قعدنا نحكي قصص الأعمال اللي باظت بسبب الكلمة دي هنقفل التصوير وهنقعد نحكي قصص كتير، هذه الكلمة ما دبت في مكانٍ إلا وحولته من جنةٍ إلى الخروج من هذه الجنة، كما حدث مع إبليس، لما تكلم بهذه الكلمة أُمر بالخروج منها، "قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا" الأعراف: ١٣، هذه المنزلة لأن كلمة منها الهاء دي، يُحتمل أن تعود على المنزلة مش بس الجنة، الله –عز وجل– يرفع الناس ويضعهم في منزلة، حينما يتكلمون بهذا الكلام يُخفضون و–العياذ بالله–، يأتيهم أمر اهبطوا، لستم أهلًا للرفعة، أنا رفعتكم فلا تنسبوا ذلك إلى أنفسكم، متقولش أنا، أنا أصلًا، أنا من نار، إزاي وأنا مينفعش.

الله –عز وجل– يحب، الواحد للاسف بيخاف يقول الكلام ده لأن عنده قصور في مثل هذه القضية، الله يحب الهين اللين، السهل القريب الذي هو مفاتيح للخير، يكون من مفاتيح الخير، ولايكون من مفاتيح الشر، فهذه الكلمة ما دخلت في مكانٍ إلا وأخرجتهم من الجنة التي كانوا فيها، ما ابتلوا قوم بهذه الكلمة إلا وأفسدت عليهم أعمالهم.

"قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ"، مباشرةً بعدها، "قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا"، هذا مرض عصي، تمكُّن الكبر لا يصلح معه نقاش، هذا المرض حينما يتمكن، القضية مش قضية اقناع ده كبر مسيطر على القلوب خلاص، هذا المرض حينما يتمكن من الإنسان و–العياذ بالله– يمنعه من الخير "قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا"، بعضهم قال أن الفاء دي فاء السببية، أي بسبب أنك تكبرت، وطبعًا لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر حتى لا يتشبَّه بإبليس، وتطبيقًا لموعود الله. "فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا" الأعراف: ١٣، مينفعش، لا يكون لك أن تتكبر فيها أي في هذه المنزلة، في هذه المنزلة التي رفعتك إليها لا يصلح معها تكبر، كم من إنسان سقط من منزلةٍ رفعه الله –عز وجل– فيها بسبب هذه الكلمة، كم إنسان رفعه الله –عز وجل– واستعمله في الطاعة ثم بكبره سقط من هذه المنزلة، رفعه الله –عز وجل–، كان لا شيء "لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا" الإنسان: ١، أتي الله –عز وجل– به ورفعه ثم هو يقول أنا

فعلت وأنا فعلت، مباشرة "فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا"، فليكثر الإنسان من قول فعل الله، وأعطى الله، وأنعم الله، ولا يكثر من قول لقد فعلت ولقد أديت، ولقد سـويت، يكثر من ذكر نعم الله عليه، ولا يكثر من مدح أفعاله.

"فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّـاغِرِينَ"، العلماء اتكلموا إزاي لما إبليس أُمر بالخروج من الجنة عاد مرة أخرى لوسـوسـة آدم، ده حقيقةً هو أمر غيبي نكتفي فيه بالتسـليم، حتى لا نخوض في قضـايا، وإن كنت هأذكر لكم سريعًا بعض ما قال أهل العلم.

بعض المفسرين حاول يخرج من الأزمة دي وقال: أن الجنة دي أصلًا كانت على الأرض وليست جنة السماء ليست جنة الخلد.

لكن حقيقةً قول جماهير أهل السُـنَّة أن هذه الجنة هي جنة الخلد، هي جنة النعيم، ونقاش طويل ليه مش جنة النعيم وإزاي يبقى فيها اختبار والجنة مفيش فيها اختبار، الشاهد نحن نتعامل مع ما آتانا من آيات الله –سبحانه وتعالى–.

خلينا نتعامل مع القرآن أنه كتاب هدى، وقضـية أن القرآن كتاب هدى قضـية مرجِحة لكثير من الخلافات، وقضـية تبعدك عن كثير من النقاشات، احنا بنستفيد أن ربنا –سبحانه وتعالى– أخبرنا أنه خلق آدم في الجنة، خلاص ربنا خلق آدم في الجنة، نبحث ونتدبر فيما أخبرنا الله به، قال: "فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ".

هل إبليس كان مخيرًا؟

قال ربنا –سـبحانه وتعالى– مخاطبًا إبليس عليه لعنة الله، "قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّـاغِرِينَ"، العلماء لما جم اتكلموا على مسـألة فاخرج إنك من الصـاغرين فكلمة "إِنَّكَ مِنَ الصَّـاغِرِينَ"، هل إبليس عليه لعنة الله كان هو كُتِب عليه، طُبِع على الشر من أول ما خُلِق، ولا هو زي الإنسان اختار؟ كان عنده قدرة يختار وده كلام ابن عاشـور وكتير من المفسـرين، إن كان له قدرة أن الله –عز وجل– أعطاه الله –عز وجل– إن هو يطيع أو يعصي، فلما عصى في هذه اللحظة كُتب عليه الشقاء الأبدي، فقالوا هنا "إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ"، بتعبير حتى ابن عاشور المسخ النفساني، مُسخت نفسه في هذه اللحظة، فلا عودة.

عشـان بعض الناس يقول لك إيه طب ما هو ربنا من الأول، ويقعدوا يجيبوا شـبهات، وربنا من الأول خلى إبليس كده، هو طبعًا دي مسـألة في القدر، نعم الله –عز وجل– هو الذي يُضِـل الإنسـان لكن يضـله بحكمته –سـبحانه وتعالى–، بعلمه، أنه يستحق ذلك، ويستحق الإضلال، مش هنعمل زي المعتزلة نقول لا ربنا مبيضلش، هو الإنسان اللي بيختار الضلال بنفسه، هو اللي بيخلق الضلال، لا، الله –عز وجل– هو الذي جعل الظلمات والنور –سبحانه وتعالى–، فهنا إبليس في هذه اللحظة لما أبى السـجود صـدر الأمر من الملك –سـبحانه وتعالى– قال "إِنَّكَ مِنَ

الصَّـاغِرِينَ"، سـتظل ذليلًا أبد الدهر، خلاص، اتقفل عنده باب العودة هنا قالوا سُمي إبليس من الإبلاس أي اليأس، مبلسين أي يائسين محبطين – سورة الروم.

فهنا الإبلاس من اليأس قال "إِنَّكَ مِنَ الصَّـاغِرِينَ"، قالوا في هذه اللحظة كما أن الله –عز وجل– إذا مسـخ قومًا في أبدانهم لن يعودوا، فكذلك هذا مُسِخ في نفسه والعياذ بالله، ده من العقوبات الأبدية نسأل الله السلامة، كما أخبر ربنا "فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ" التوبة: ٧٧، فيه عقوبات كده والعياذ بالله، "فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ"، فهنا قال ربنا لإبليس "فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّـاغِرِينَ"، الصـاغرين عكس أنا خير منه، متكبر، فعوقب بنقيض قصده، مرضاش يسجد حتى لا يكون هذا عمل فيه إهانة له كما يظن، كما يدَّعي، فعوقب بنقيض قصده، أراد أن يرتفع فكانت عقوبته والعياذ بالله أنه من الصاغرين.

لماذا طلب الله من إبليس أن يُنظِره

" قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ" الأعراف: ١٤، لم يقل "رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَـنَا" الأعراف: ٢٣، كما قال آدم، طلب طلب قال في آية ربي، هنا " قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ"، طلب الإنظار أن يُنظَر إلي يوم البعث، ليه إبليس طلب أن يُنظَر إلى يوم البعث؟ عشان مفيش متعة في الدنيا إلا ويتمتع بيها؟ عشان مفيش ولا واحد من البشر يفلت منه، شوف اتعلم علو الهمة من إبليس، شـوف، يعني علو الهمة من إبليس عايز ميفوتوش ولا واحد من أولاد آدم من بني آدم، لذلك الخطاب في الأعراف أربع مرات السورة الوحيدة، يا بني آدم، احذروا، تذكروا دائمًا هذه المعركة.

هنا قال " قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ"، هو مركز مع بني آدم، يوم ما يبعثهم، عايز أفضـل معاهم مسـيبهمش لحظة لغاية لما أطمن أن البعث جه، خلاص يخشـوا النار معايا أنا كده اطمنت، "وَقَالَ الشَّـيْطَانُ لَمَّا قُضِـيَ الْأَمْرُ" إبراهيم: ٢٢، عشـان أخطب فيهم الخطبة بتاعتي، عايز أعداد، الشيطان ميحبش يخطب في مسجد صغير، عايز أعداد كبيرة، "إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ"، عشـان يخطب فيهم كلهم في النار، فهو عايز إيه؟ كل الناس تبقى معاه "أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ" الأعراف ١٤: ١٥،.

كتير من العلماء حتى ذكر الإمام ابن كثير فأجاب الله اللعين إلى ما سـأل، كتير من العلماء بيقول إيه، إن إبليس لما طلب أعطاه الله سؤله، لكن المتقدمين الإمام الطبري، وقبله الإمام السُدِّي، وبعض السلف قال لا، لم يعطه الله سؤله، أمال إيه اللي حصـل؟ هو طلب أن يُنظَر إلي يوم البعث، يوم البعث ده يعني الناس كلها بتموت في النفخة الأولى وبعدين يفضـلوا فترة، وبعدين النفخة التانية يوم البعث وبعد كده مفيش موت، يُدحر الموت ويُنحر الموت بعدها، إبليس عايز يفضـل لا يذوق الموت، إبليس لما طلب أنظرني إلي يوم يُبعثون كان عايز حاجتين: لا يريد أن يذوق الموت يريد الخلود، ولا يريد أن يفلت منه أحد من بني آدم.

فخد الأولى أن هتفضل مع الناس لغاية النفخ، لكن هتموت معاهم ستذوق الموت، لذلك لما ربنا قال له في سورة أخرى "قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ" الحجر ٣٧: ٣٨، ماقلوش إلي يوم يُبعثون، قالوا الوقت المعلوم هو يوم النفخة لما الناس كلها بتموت، وده مروي عن السُدِّي وبعضهم رواه عن ابن عباس زي ابن أبي حاتم، وغيره وده اختيار الطبري، أن الله –عز وجل– لم يعطه سؤله، إن اللعين كان يريد أن لا يذوق الموت، قضية الخلود وأنه لا يريد أن يذوق الموت قضية شغلاه، بل هو دخل منها لآدم أصلًا "هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ" طه: ١٢٠، فهو لما أراد أن يطلب هذا الطلب قال أنظرني إلي يوم يبعثون، لما أعطاه الله –عز وجل– قال "فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ"، احنا قلنا الآيات اللي بتيجي مطلَقه في موطن بتُقيد في موطن آخر في القرآن، فأظن آية الحجر قيدت هذا الموطن "إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ"، أي إلي يوم النفخة لا إلي يوم البعث.

الفرق بين آدم وإبليس عند الوقوع في المعصية

"إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ"، قال لما اطمن وخد الوعد من ربنا، ويعلم أن الله –عز وجل– إذا أعطى وعدًا –سبحانه وتعالى– أمضاه لما اطمن "قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ" الأعراف ١٦: ١٧، سيدنا آدم لما أذنب قال "ربنا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا"، قال أنا اللي غلطان، إبليس لما أذنب قال يارب أنت اللي أغويتني، ده الفارق، راجع نفسك لما بتغلط، أنا اعمل أنا إيه يعني، أعمل أنا إيه يعني ما هو ده اللي حصل، ما هو الوضع كده أعمل أنا إيه أنا مش غلطان، يعني فيه واحد لما يجي يذنب تيجي تقول له طب توب إلى الله، أعمل إيه ما الشهوات في كل حته ملاك أنا يعني، واحد يقول لك أنا ظلمت نفسي، أنا قصرت.

فهذه النزعة الشيطانية لابد أن يتخلص منها الإنسان، اللي دايمًا يعود باللوم على ربه في القدر وفي الشرع، لما ييجي يخطئ خطأ شرعي يعود باللوم على ربنا، ما هي الظروف أصلًا وأنا اعمل إيه يعني، لما يحصل قدر، ليه يارب كده، يعود باللوم على ربه، لذلك سيدنا يونس –عليه السلام– وهو نبي ويعمل في الدعوة ماسبش البلد عشان عقد عمل مثلًا، ده راح يدعو إلى الله في بلد تانية، ثم يلتقمه الحوت ويقول "لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ" الأنبياء: ٨٧، ينزه الله، ويقول أنا اللي غلطان، هذه الكلمة كلمة تُحفظ، حتى إذا مررت بمثل هذه الأزمات وأتاك الشيطان فلتلجأ إلى الله بها وتقول "لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ".

فالشيطان "قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي"، أنت اللي ضلتني أنا كنت كويس أصلًا، يعني أنا أصلًا كويس، "فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي"، لذلك بعضهم قال الباء هنا، فيه مفسرين قال الباء باء المجازاة، دي قصاد دي، مش أنت ضلتني طب شوف أنا هعمل فيهم إيه، كيف يتكلم مع ربه؟ بعضهم قال هذه باء القسم، اللعين يقسم بربه والله وبالله لأغوينَّهم، سواء باء السبب أو باء القسم تدل على شدة غيظه من آدم وبنيه، قال "فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي" نعم الله –عز وجل– يضل، لكنه يستحق ذلك.

الغواية: الانصراف عن الطريق الصحيح، بعضهم قال أن الفصيل اللي هو ابن الناقة لما يشرب لبن كتير، أو يُمنع عن اللبن تمامًا فينزل في الحالتين لما يموت بسبب قلة اللبن تمامًا أو شرب لبن كتير يقولوا هوى الفصيل، مات بسبب اللبن، بسبب لبن فاسد أو لبن كتير، أو تعامل خاطيء مع اللبن، يقولوا هوى الفصيل، الامتلاء إلى حد الموت ده غواية، فالامتلاء من الدنيا أو من الكبر إلى حد الضلال ده غواية.

رد الشيطان وترصده لبني آدم

قال "فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي"، طب هيعمل إيه؟ هو عايز يرد، أبى أن يسجد، قال "لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ " الأعراف: ١٦: ١٧، إبليس قال "لَأَقْعُدَنَّ"، إبليس لما أرد إن هو يقف في طريق بني آدم مقلش لأقفن، ماشي، ومقلش لأنامن، العرب إمتى بتستخدم كلمة القعود؟ يقول لما أنت تحب تترصد لواحد وتريد أن تقعد لتحفظ قواك ولا تريد أن تنام لتستعد متأهبًا، فبيختار لفظ القعود لواحد بيختار أنه يفضل في مكان مورهوش حاجة غير حاجة واحدة بس، "وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ" التوبة: ٥، احنا مورناش حاجة غير مقاطعة أهل الباطل.

فالشيطان بيقول "لَأَقْعُدَنَّ"، مورايش غيركم، أنا قاعد لهم، فالشيطان بيقول إيه؟ "لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ"، الشيطان قرر أنه يقعد، القعود فيه طول الفترة، وفيه التأهب، العرب يستعملون القعود عشان يجمع بين حاجتين، إنه عايز يحافظ على قوته عشان يفضل أطول فترة ممكنة، وفي نفس الوقت يظل متأهبًا، فبيستعملوا لفظة القعود للي قاعد مورهوش حاجة، أنا قاعد هنا مورايش حاجة، "فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ" المائدة: ٢٤، احنا مش هنتنقل من هنا، فالتعبير عن الملازمة بيأتي بالقعود، قال له أنا ملازم، أنا مش هروح مثلًا هعمل مشوار وارجع، أنا قاعد.

ولما اختار إبليس اللعين أن يجلس جلس على الصراط، مقعدش مثلًا وكل ما يجي حد على الصراط يبقى يجي، لا، عارف اللي واقف على باب المسجد، مش مثلًا يروح ولما يشوف حد جي ابقى نادي عليا، لا، وده من علو همته، إحنا قلنا الشيطان علو همة، إنه طلب أنه يُنظَر إلي يوم البعث، إن لما حب يقعد قعد على الصراط مش بعيد، أنه اختار القعود عشان طول الفترة، أيضًا في الحديث النبي –صلَّى الله عليه وسلم– "ما من مولود يولد إلا وينخسه الشيطان"[٣]، يعني بيبدأ مش معاك مثلًا لمرحلة البلوغ، يعني الشيطان مش بيسيبك مثلًا لغاية ما يبقى عندك ١٢، ١٣ سنة وبعدين يلا أما نشوف بقى، لا، "ما من مولود يولد"، شوف علو الهمة.

من أول لحظة الولادة، وعايز كل البشر، ومش مثلًا بيختار أنه يبعدك عن طاعة واحدة، لا قال –صلَّى الله عليه وسلم– " إن الشيطان قعد"، نفس التعبير، "قعد لابن آدم بأطرقه كلها"، أي طاعة أنت عايز تعملها الشيطان قاعد

[٣] "ما من بني آدمَ مولودٌ إلا يمسُّه الشيطانُ حين يُولَدُ ، فيستهلُّ صارخًا من مسِّ الشيطانِ ، غيرَ مريمَ و ابنِها" صححه الألباني.

لك، فقال –صلَّى الله عليه وسلم–، "أراد أن يُسلم فأتاه الشيطان، فقال أتريد أن تُسلِم وتذر دينك ودين أبائك فعصاه فأسلم، فأراد أن يهاجر قال أتهاجر وتذر أرضك وسمائك، فعصاه فهاجر، فأراد أن يجاهد فقال أتجاهد وتترك الأولاد، والزوجة تُنكح الزوجة ويُيتم الأولاد، ويقسم المال، فعصاه فجاهد"[٤]، كل اختيار بتختاره في الطريق يأتيك الشيطان، كل اختيار.

لذلك بعضهم قال هنا الصراط المستقيم، بعضهم قال المقصود به الهجرة، وإن ده كانت فيه إشارة أن في هجرة ممكن تحدث، وأن الشيطان يريد أن يثبطكم عنها، بعضهم قال الصراط المستقيم القرآن، وبعضهم قال الإسلام وهو أعم من ذلك، كل شيء يرضي الله –سبحانه وتعالى– هو من صراطه المستقيم، وعلم الشيطان أن لله صراطًا مستقيمًا ليس أعوج، علم الشيطان أن صراط الله –عز وجل– مستقيمًا، فبيقول له صراطك المستقيم، فبيقول له أنا لما أجي أقعد هقعد على المستقيم بحيث أنه إيه، أي حد يريد أن يصل إلى الله هو يقطع عليه الطريق، فهو يعمل قاطع طريق.

فحينما يريد السالك إلى الله –عز وجل– أن يسير ولا يتذكر قضية الشيطان ولا يتخذه عدو، هو يسير في غير الطريق، ربنا بيقول لك أن الشيطان قاعد لك على الصراط المستقيم، "لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ"، لام الخاص أنا مورايش غيرهم، "لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ "، أنا بقول لك لام دي لام الملكية، أنا قاعد لهم مواريش غيرهم، "صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ"، مش بس هفضل قاعد، يعني مش مثلًا هفضل قاعد واللي يعدي أشنكله وخلاص، لا، قاعد إيه وبيخطط وبيفكر، "ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ"، شوف التفكير، يعني مش بس قاعد وخلاص، وكل ما يجي حد يدخل الطريق المستقيم يقول له ليه، لا قاعد يفكر، ويجرب كل المداخل.

بعضهم العلماء قال: المقصود من أمامهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، إن كل لفظة من دي ليها دلالة، وده مروي عن ابن عباس، فبعضهم قال أن الأمام أي من الآخرة، ومن الخلف أي من الدنيا، وعن اليمين أي الطاعات، والشمال أو الشمائل أي السيئات، فقالوا أن يأتيهم من أمامهم يخوفه، يخوفه أنت رايح فين أنت مجنون حد يعمل كذا، حد يتعلم، حد يدعو، حد يجاهد، أنت رايح فين، يخوفه من السير في طريق الآخرة، ويأتيه من خلفه أنت سايب إيه بس تعالى، حد يسيب الشغلانة دي، وحد يسيب، أنت ليه هتسيب الدنيا هتسيبها لمين يعني، ولو أنت مخدتش الدنيا مين اللي ياخدها يعني، مين يعني، لو أنت مخدتهاش هتسيبها لمين، ده ميستهلش حاجة، أنت تستاهل كل خير، فيجيلك من خلفهم رايح فين مثلًا.

وعن أيمانهم، يجيلك كل ما تيجي تعمل طاعة، إيه ده صعبة جدًا، هو ده دين ده، مش ممكن حد بيعمل اللي انت بتعمله ده، ده سفه، ده ميرضيش ربنا، يجيلك عن الشمائل، يقول لك: الله شوف الجمال، يزين لك المعصية، يزينها

---

[٤] "إنَّ الشَّيطانَ قعدَ لابنِ آدمَ بأطرُقِهِ ، فقعدَ لَهُ بطريقِ الإسلامِ ، فقالَ : تُسلمُ وتذرُ دينَكَ ودينَ آبائِكَ وآباءِ أبيكَ ، فعَصاهُ فأسلمَ ، ثمَّ قعدَ لَهُ بطريقِ الهجرةِ ، فقالَ : تُهاجرُ وتدَعُ أرضَكَ وسماءَكَ ، وإنَّما مثلُ المهاجرِ كمَثلِ الفرسِ في الطِّوَلِ ، فعَصاهُ فَهاجرَ ، ثمَّ قعدَ لَهُ بطريقِ الجِهادِ ، فقالَ : تُجاهدُ فَهوَ جَهْدُ النَّفسِ والمالِ ، فتُقاتلُ فتُقتَلُ ، فتُنكَحُ المرأةُ ، ويُقسَمُ المالُ ، فعصاهُ فجاهدَ ، فقالَ رسولُ اللَّهِ : فمَن فعلَ ذلِكَ كانَ حقًّا على اللَّهِ عزَّ وجلَّ أن يُدْخِلَهُ الجنَّةَ ، ومن قُتِلَ كانَ حقًّا على اللَّهِ عزَّ وجلَّ أن يُدْخِلَهُ الجنَّةَ ، وإن غرِقَ كانَ حقًّا على اللَّهِ أن يُدْخِلَهُ الجنَّةَ ، أو وقصتهُ دابَّتُهُ كانَ حقًّا على اللَّهِ أن يُدْخِلَهُ الجنَّةَ" صححه الألباني.

لك، زي ما شوف الشيطان كيف سول وزين الشجرة لأبينا آدم، لازم يزين لك، يعني الشيطان مبيقولكش إيه إعمل المعصية الوحشة دي وخلاص اعملها، لا، لازم يزينها لك، يخليها إيه جميلة في عينك، يخليها أمنيتك قبل أن يأمرك بالمعصية، فيأتيته من أمامه ومن خلفه.

وبعضهم عكس، قال الأمام هي الدنيا، والخلف هي الآخرة، أيًا كان، بعضهم قال، لا مش كل لفظ له دلالة ولا حاجة، إنما ده دلائل المقصود هنا إن كما أن العدو يبحث عن أي مدخل يدخل إلى الذي يريد أن يفترسه، بيبحث عن أي مدخل، وهنا القضية الإحاطة كما قال ربنا –سبحانه وتعالى– "وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ" الكهف: ٤٢، فلما أحيط بثمره لم يجد منفذًا للهروب، فالشيطان عايز يعمل دايرة عليك، زي ما آخر السورة أيضًا هنا "إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ" الأعراف: ٢٠١، طائف يعني بيلف يدور، يفضل يطوف، الشيطان قبل ما بيختار السهم اللي يرميه في قلبك بيقعد فترة يطوف حواليك، مش بيعبدك ولا حاجة، ده بيقعد يطوف يدرسك.

نفس الوصف "إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ" الأعراف: ٢٠١، نفس الوصف اللي قاله النبي –صلَّى الله عليه وسلم– "لما صور الله –عز وجل– آدم جعل إبليس يطيف به"[٥]، ده، ده بتاع فلوس، لا ده بتاع نساء، لا ده بتاع كبر، ده نخشله من المدخل ده، وبعدين بيجرب قدام ورا، يمين، بس لقيت المدخل، هو عايز يعمل إحاطة متفلتش، زي خيوط العنكبوت يقعد يلف يلف الخيوط عليك حتى تسقط، الشيطان واخد الموضوع معركة، الشيطان مش واخد الموضوع لعبة، لأن ده مستقبله انتهى، مستقبله الأخروي انتهى، فهو لا يفكر إلا فيك، هو الموضوع عنده خلصان، يعني مش قاعد مثلًا بيفكر طب بيجاهد نفسه عشان يصلي ركعتين، هو مورهوش غيرك خلاص، خد الإنذار إلي يوم النفخة الأولى.

العجيب هنا اللعين بيقول إيه لربنا، "وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ" الأعراف: ١٧، فالعلماء بيقولوا شاكرين إيه بالضبط، إيه النعمة اللي هنا إبليس بيقول ربنا هما مش هيشكروها؟ الطبري هنا اختار معنى رائع بصراحة، إيه النعمة اللي الشيطان، هل المقصود، دايمًا، أحيانًا عندنا قواعد في اللغة والتفسير أن لما يجي مفعول محذوف يعني هنا ربنا مقلش شكروا نعمة إيه فممكن يفيد العموم، فبضعهم قال أي لا يشكرون أعظم النعم أو معظم النعم، أو أغلب النعم، الطبري هنا اختار نعمة معينة، "قال: لا يشكرون إسجاد الملائكة الذي بسببه أنا طُرِدت"، قال مش أنت خليت الملائكة يسجدوا، النعمة دي اللى أنا اطردت بسببها هما مش هيحترموها ولا يعرفوا قيمتها، لكن أنا هجاهد عشان أستردها، شوف اللعين.

بعضهم قال أن الآية دي وغيرها هي دي تفسير قول الله –سبحانه وتعالى– في سورة سبأ، "وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ" سبأ: ٢٠، يعني إبليس ظن ظن معين، إن فيه ناس هتمشي وراه، إبليس ظن هذا الظن، وأعلن هذا الظن أمام الرب –سبحانه وتعالى–، قال يارب فيه ناس هتسمع كلامي أنا، فقالوا من أطاع الشيطان فقد صدق ظن إبليس فيه،

[٥] "لَمَّا صَوَّرَ اللَّهُ آدَمَ في الجَنَّةِ تَرَكَهُ ما شاءَ اللَّهُ أنْ يَتْرُكَهُ، فَجَعَلَ إبْلِيسُ يُطِيفُ به، يَنْظُرُ ما هُوَ، فَلَمَّا رَآهُ أجْوَفَ عَرَفَ أنَّه خُلِقَ خَلْقًا لا يَتَمالَكُ" صحيح مسلم

فلذلك حتى الطبري بيقول "فهنيئًا لمن خيَّب ظن اللعين فيه"، الواحد ممكن ياخد نية أنه يخيب ظن اللعين، لن أكون من أتباع إبليس.

"وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـــاكِرِينَ"، فكانت العقوبة قال تأكيد "قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا" الأعراف: ١٨، بلا عودة، الذأم شـــدة الذم والعيب، مدحورًا مطرودًا لعينًا لا عودة لك، مش أنت بتقول أن فيه ناس هتســـمع كلامك، الله غني عن العالمين، "لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ"، وقيل اللام هذه لام القسم، وقيل لام الابتداء، لمن تبعك، أي والله يقسم الله بنفسه –سبحانه وتعالى– كل من تبعك منهم، "لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ"، و–العياذ بالله–. فالله –عز وجل– لا يعجزه أحد –سبحانه وتعالى–، العاصي، المتكبر الذي أعرض عن وحيه وشرعه، الله –عز وجل– يلقيه في جهنم ولا يبالي –سبحانه وتعالى–، فليس أحد بعزيز على الرب –سبحانه وتعالى–.

الله –عز وجل– يمهل ويرسل الرسل ويعطي الإنذار، ثم إن أعرض الإنسان وتكبر واستمر في إعراضه وتكبره يعذبه الله –عز وجل–، –سبحانه وتعالى–،

اسأل الله –عز وجل– أن يستعملنا لنصرة دينه وأن لا يستبدلنا، أسأل الله –عز وجل– أن يجعلنا من الطائعين المعادين لإبليس، المعادين لجنده، المعادين لذريته، اللهم ربنا آتنا في الدنيا حســـنة وفي الآخرة حســـنة وقنا عذاب النار، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

تم بحمد الله

شاهدوا الدرس للنشر على النت في قسم تفريغ الدروس في منتديات الطريق إلى الله وتفضلوا هنا:

http://forums.way2allah.com/forumdisplay.php?f=36